

أضواء البيان

@ 443 @ .

وبعد التأمل ، ظهر واضحاً تعالى أعلم ، أنه سبحانه لا يقسم بشيء في موضع دون غيره ، إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع ، يكون بين المقسم به ، والمقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفياً . . .
وهذا فعلاً ما تقتضيه الحكمة والإعجاز في القرآن ، وإن كنت لم أقف على بحث فيه . .
ولكنّ مما يشير إلى هذا الموضوع ، ما جاء بالإقسام بمكة مرتين ، وفي حالتين متغايرتين . . .

الأولى : قوله تعالى : { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حَلِيمٌ بِهِ هَذَا الْبَلَدِ * وَالرَّيْدِ وَمَا لَدَا * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ } . .
والموضع الثاني : قوله تعالى : { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } . .

فالمقسم به في الموضعين : مكة المكرمة ، والمقسم عليه في الموضعين خلق الإنسان ، ولكن في الموضع الأول كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته ، إلى كده في حياته ، إلى نهايته ومماته . .
من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله ، ولحقت به أمه ، وهو في طفولته ، وبعد الوحي كابد مع قومه ولقى منهم عنقاً شديداً ، حتى تأمروا على قتله ، فلما نه يقول له : اصبر على ذلك ، فإن المكابدة لا بد منها ، وهي ملازمة للإنسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك . .

وفي ذكر { وَالرَّيْدِ وَمَا لَدَا } إشعار ببداء المكابدة ، وبأشدها من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ، ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون أي وصف . .
أما في الموضع الثاني : فالمقسم عليه ، وإن كان هو خلق الإنسان ، إلا أنه في أحسن تقويم ، وهي أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضاً للنعم ، وتعددها من التين والزيتون ، سواء كان المراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها ، وهو بيت المقدس مع طور سينين .